# لو عاد بي الزمن

إبراهيم عبد العزيز السمري ـ مصر

وتلاقينا على غير موعد منَّا بعد أن عصفت بنا رياح الزمن، وأنهكتنا حروب الليالي، مازال قدّها ممشوقاً كعهدي بها يوم أن تركتها آخر مرة منذ عشرين عاماً، وما فتئت ابتسامتها الحَيِيَّة تعيد إليّ شبابي الذي انطوى مع آخر لقاء، لكن وجهها المستدير كالبدر يوم اكتماله غاب عنه بعض رُوائه، وبريق عينيها ـ الذي طالما أرّقني، وجعلني أصادق النجوم وأناجيها في سهادي ـ أوشك أن ينطفئ رغم أن شعاعه معبأ بأشواقٍ مكبوتة، وهمساتٍ حائرة ، كلاهما قادرتان على أن تعيداه إلى سابق عهده..!

نظرتْ إليّ نِظرة المُعَاتِب، فنظرتُ إليها نِظْرة المُعْتذِر، كل شيء فيها ينِمّ عن ألم نفسيّ صادر عن رحلة شقاء اجتماعية.. خانتني شجاعتي عن مساءلتها عن سبب حزنها المرسوم على تجاعيد وجهها.. طال الصمت بيننا وكأننا اكتفينا بلغة العيون..!

راودتني الذكريات القديمة، تراءت أمامي كظبية يافعة، تتحرك في خفة ونشاط، تبدو على ملامحها الجديّة والصرامة كأنها عازمة على الوصول إلى شيء ما في عقلها، لا تعطي فرصة لأحد يرغب في التقرّب منها أو التحدث إليها.

جمالها الذي لم أر له مثيلاً في كل من أتعامل معهن، ولباقتها الآسرة لكل من يستمع إليها، وصرامتها التي لم أعتد أن أراها على أنثى في جمالها، كل هذا جعلني أحتال في التقرب إليها، ولفت انتباهها.

بطريقة ما استطعت أن ألفت انتباهها، وأن أثبت لها أنّ شخصًا يختلف عن كل من حولها يهتم بها .. أصبحت أحادثها عن قرب بعد أن كنت أنظر إليها كنجمة من المحال الاقتراب منها.. لكن حديثنا في كل مرة لم يكن حديثا عاطفياً، بل كان حديثا جادًا عن العلم والمستقبل وكيف تعد بحثاً ناجحاً؛ ذلك لأنها رأتني أفوز بجائزة للبحوث العلمية في المدرسة الثانوية.

كلما مرّ يومٌ نما شوقي إليها، وتسرّب في شراييني حبها، حتى انقضت السنة الأخيرة من الجامعة، أحسست بأن أمامي طريقًا شاقًّا يجب أن أسلكه، فهناك في البيت أمٌ تنتظر رد الجميل من ابنها، وفي خيالي أحلام وآمال يجب أن أحققها.. نظرت إلى فتاتي فوجدت البون شاسع فيما بيننا.. فرغم الحب العظيم الذي أحمله بين ضلوعي وأكتمه عن الدنيا، لم أبح به يوماً لها، كنت أستحيي أن ألفظ بكلمة تنبئ عما أخبئه فتجعلني صغيراً في عينيها، فكيف لها أن تعرف مكنون قلبي؟!

وماذا أقدم لها إذا دفعتني الجرأة إلى الاعتراف بحبي لها، وقادتني الشجاعة إلى الاقتراب من حمى أبيها ـ الذي أقدّره ـ لأطلب يدها، وخصوصًا بعد أن تقدّم لها شباب كثيرون ـ أنا دونهم في كل شيء ـ فرفضتهم جميعًا؟!

ألقيت بنفسي بين شقي رحى الحياة، وتناسيت آمالي وأحلامي الضائعة، وعشت الواقع بكل ما فيه من بؤس ونعيم، حتى تعرفت على زوجتي التي تحبني أكثر من حبي لها، استعضت بها عما فاتني، وتحملت معي مرارة الحياة حتى أنعم الله علينا وأصبحنا في أفضل حال.

لكني حين رأيتها أمامي بعد حين من الزمان غير قليل، وشممت رحيقها الذي أعرفه جيداً شعرت برجفة تسري في جسدي، وسمعت دقات قلبي يتردد صداها فيما حولي، تجسدت أمامي كل أوجاع السنين الماضية، وتذكرت كل الكلمات التي كنت أخفيها عنها، لكن لساني لم يزل يتسمّر في مكانه، كأن طلّتها تقيّد شجاعتي وتأسرها..!

اتجهت في هدوء صوب طريقها الذي تسلكه بعد أن ودّعتني بنظرة قضت على ما تبقى مني من ملامح الرجولة، فاتجهت أنا الآخر صوب طريقي وفي جوفي صرخة لو أطلقتها لأسمعت العالم بأسره، ومضيت أهمهم وأقول لنفسي لو عاد بي الزمن إلى الوراء فلن أضعف ولن أستسلم، ولن أكتم حبي ثانية، ولن أتراجع عن الذهاب إلى أبيها حتى لو كلفني الأمر حياتي..!!